

نظرة أبي القاسم سعد الله إلى قضايا الأمة وموقفه منها: القضية

الفلسطينية أنموذجا

Abu al-Qasim Saadallah's outlook on the issues of the nation and his position regarding them: The Palestinian issue as a paradigm

د. جمال زواري أحمد^{*1}

جامعة الوادي (الجزائر) zouariahmed-djamel@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/13 ؛ تاريخ القبول: 2025/07/17 ؛ تاريخ النشر: 2025/07/31

Abstract

“Abu al-Qasim Saadallah’s deep concern for the issues of his homeland—its history, culture, thought, and literature—and his dedication of significant effort, time, and thought to research, investigation, documentation, verification, explanation, and analysis in this regard, as well as his expression of opinion and stance, both in writing and speech, on all matters related to it, did not isolate him from the causes of his Arab and Islamic nation. His level and scope of concern for these broader issues were no less than his concern for national issues. Foremost among these causes is the **Palestinian issue**, which occupied a central place in his thought from an early stage. This was evident in the articles he wrote about it, the positions he took regarding it, and the studies he conducted and published on it—not out of intellectual luxury, but rather as a sense of duty and fulfillment of a mission toward his nation and its national causes, at the forefront of which stands the Palestinian cause.

Keywords : Saadallah; The issues of the nation; Palestine; The Zionist entity; Occupation; Resistance.

المخلص

إن اهتمام أبو القاسم سعد الله بقضايا وطنه تاريخا وثقافة وفكرا وأدبا، وبذله الكثير من الجهد والوقت والتفكير في البحث والتنقيب والتدوين والتوثيق والتحقيق والشرح والتحليل في سبيل ذلك، وإبداء رأيه وموقفه كتابة ومشافهة من كل ما يطرح منها، لم يجعله بمعزل عن قضايا أمته العربية الإسلامية، إذ لم يكن مستوى وحجم اهتمامه بها بأقل من اهتمامه بقضايا الوطن، ويأتي على رأس هذه القضايا قضية فلسطين، حيث كان هم القضية الفلسطينية بكل أوجه معاناتها حاضرا لدى سعد الله مبكرا فيما كتبه حولها من مقالات، وأبداه تجاهها من مواقف، وأبجزه ونشره عنها من دراسات، ليس من باب الترف الفكري بقدر ما هو شعور بواجب وأداء لرسالة نحو أمته وقضاياها القومية وفي مقدمتها قضية فلسطين.

الكلمات المفتاحية: سعد الله؛ قضايا الأمة؛ فلسطين؛ الكيان الصهيوني؛ الاحتلال؛ المقاومة.

^{*} جمال زواري أحمد

مقدمة:

يعتبر أبو القاسم سعد الله من الجيل المخضرم الذي عاش قبل الاستقلال وبعده، وترك بصماته الفكرية والعلمية والثقافية في الفترتين من خلال جهوده التي بذلها في سبيل ذلك سواء على المستوى التعليمي الأكاديمي حيث خرّج أجيالا من الطلبة في عدد من الجامعات الوطنية والعربية والأجنبية، أو على مستوى البحث التاريخي والإنتاج الفكري، حيث نفّض الكثير من الغبار عن تاريخ الجزائر والعرب والمسلمين بحثا وتنقيبا ودراسة وتحليلا وتأليفا وتحقيقا.

وكان سعد الله في كل ذلك ذاك المؤرخ والمفكر الملتزم تجاه أمته وقضاياها المختلفة، الحامل لهمومها، المنافع عن هويتها وأصالتها ووحدتها، المنقب في تاريخها، المذكر بأمجادها، الباحث عن عزتها وكرامتها، الدارس لمسيرتها، الراصد لواقعها، المعالج لانتكاساتها وهزائمها، المتفاعل مع أحداثها، الراسم لخارطة طريق خروجها من مأزقها. فعل كل ذلك برؤية فاحصة وناقدة، بعيدة عن التعصب والتبرير والمجاملة.

وكانت قضايا الأمة في ذلك كله حاضرة بقوة لدى سعد الله المؤرخ والمفكر، وتحتل حيزا معتبرا من دائرة اهتمامه، حيث كان له موقف عبّر عنه بوضوح من كل قضايا الأمة التي عاصرها وعاشها طيلة حياته، فتناولها بالكثير من المصارحة والجرأة، وخص القضية الفلسطينية من بين هذه القضايا باهتمام خاص نظرا لما تحمله من بعد قومي وديني، فكتب عن ماضيها وتاريخها وأسباب ضياعها، وطبيعة الاحتلال الصهيوني لها، كما كتب عن حاضرها وواقعها الحالي، وقدم تصوره لمستقبلها والطريق الصحيح لحلها والتعامل مع عدوها، وعبّر عن موقفه من الحركة الصهيونية ومشروعها ومخططاتها ضد فلسطين والعرب والمسلمين، وكذا داعمها في الشرق والغرب. ولم يكتف بالكتابة عنها فقط بل كانت له مساهمات عملية في دعمها ومساندتها.

لذلك أردنا في بحثنا هذا أن نستخدم المنهج التاريخي التحليلي لنسلط الضوء على جانب لم يُهتَم به كثيرا في حياة واهتمامات الدكتور أبو القاسم سعد الله مقارنة بجوانب

أخرى متعلقة مثلاً بالتاريخ الوطني أو حتى بإسهاماته الشعرية والأدبية، هذا الجانب هو نظرتة لقضايا الأمة وموقفه منها، وأخذنا القضية الفلسطينية كأ نموذج، لما تحمله من خصوصية من بين كل القضايا الأخرى، ولما تحتله من موقع متقدم في نفوس وضمائر وعقول أبناء الأمة ورجالها وأحرارها وعلمائها ومفكرها، وفي مقدمة هؤلاء الراحل سعد الله، لنطرح الإشكالية التالية: ما مدى حضور قضايا الأمة في فكر سعد الله؟ وكيف كان موقفه من القضية الفلسطينية؟ وما هي مساهماته تجاهها؟

وبما أن الدراسة متعلقة بنظرة سعد الله وموقفه من بعض قضايا عصره فمن الضرورة أن تكون مصادرها الأساسية هي كل تراث الرجل المطبوع والمنشور.

I - حضور قضايا الأمة لدى سعد الله:

يعد سعد الله شاهداً على الأمة وقضاياها المختلفة على مدار أكثر من ثمانين سنة، وعاش الكثير منها وواكب أحداثها، وتفاعل معها بكل جوارحه، فهو من جيل مخضرم عاش مرحلة الاستعمار وما بعدها، وكان واسع الأحلام بمستقبل الأمة التي لم يتحقق الكثير منها على النحو الذي كان يحلم به (سعد الله، 2011، ص 178)، لذلك فهو لا يتردد في إبداء آرائه ومواقفه وتحديد رؤيته لقضايا الساعة وهموم الجزائر والعرب والمسلمين من دون مواربة أو تردد أو تأخر أو مجاملة إلا ما يمليه عليه ضميره، ويقتنع به عقله، وينسجم مع فكره، ويعتقد أنه الحق ويصب في صالح الأمة وقضاياها (بلغيث، 2014، ص 37).

ولأن سعد الله كان من المؤرخين والمفكرين الذين حملوا هموم الأمة بالكثير من الجدية، وآمن بوحدها، فقد كانت قضاياها المختلفة حاضرة بقوة في كتاباته وأبحاثه ومقالاته ونشاطاته، حيث لا يكاد يخلو كتاب من كتبه الكثيرة من مقالة أو بحث أو أكثر يتعلق ببعض هذه القضايا، ولا يكاد يوجد نشاط من نشاطاته وتحرك من تحركاته ومشاركة من مشاركاته دون أن يكون متعلقاً بقضية من هذه القضايا، ومساهمة في تسليط الضوء عليها. فبالإضافة إلى قضايا وطنه الجزائر التي أفنى عمره الطويل في تناولها والبحث فيها ونفض الغبار عنها، ومات ومشاريعه الفكرية والثقافية والعلمية حولها لم تنته، وقضية فلسطين التي سنتناول

موقفه منها ومساهماته حولها في القسم الثاني من هذا البحث، فإنه كانت له وقفات وصولات وجولات في كل قضايا الأمة وأحداثها التي عاصرها وعاشها طيلة حياته الحافلة والثرية ثراء فكر صاحبها، فكتب عن قضايا المغرب العربي تونس والمغرب وليبيا كمقاله((هنيئاً للشعب الليبي)) تعليقا على قرار اعتراف المحتل الإيطالي بجرائمه في حق الشعب الليبي إبان احتلاله لبلده، و((مع الشعب الليبي)) تضامنا معه ومساندة له، كما كتب عن حرب الخليج واستهداف العراق وتدميره وتمزيق شمله فكانت مقالات((عذرا يا عراق)) بعد حرب الخليج الثانية، و((مع العراق القوي))، و((عنصرية دولية))، و((حول خطاب الرئيس))، و((رسالة إلى صديق أمريكي))، و((زيارة غير مرغوب فيها))، و((زيارة بالسيف))، و((رسالة إلى كاتب الدولة الأمريكي))، ليؤكد في كل هذه المقالات أن تحمل الإهانة مع العراق سيجعل الأمة تتحمل إهانات أخرى قادمة لا محالة وهو الذي حصل فعلا(سعد الله، 2011، ص ص9-146).

كما تناول قضية السودان وعلق على انفصال جنوبها ووصف الأمر بأن السودانين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم(سعد الله، 2011، ص129)، وكتب أيضا عن قضية البوسنة وقال عنها: "أما أحداث البوسنة بالذات فإنني لم أستطع - كمسلم - أن أشهد لها بدون ألم"(سعد الله، 2011، ص06)، وكتب عن أفغانستان والاعتداء عليها، كما كتب عن الشيشان وباكستان وأندونيسيا وإيران والصومال(سعد الله، 2015، ص ص27-232)، كما كتب أيضا عن قضية المسلمين الهنود(سعد الله، 2006، ص36).

ورغم حمله لهموم أمته وانشغاله الطويل بقضاياها وكتابته عن واقعها وأحداثها، ورغم كل ما قدمه في سبيل ذلك، إلا أنه بقي إلى آخر عمره غير راض عن ذلك، وتجدد كثير المعاناة لنفسه ولرفاقه من المثقفين والمؤرخين على التقصير في حق الأمة وقضاياها وهمومها على امتداد جغرافيتها فيقول: "أخذ مثلا خريطة الصحراء الغربية وأفغانستان مروراً بالقدس والخليج(العالم الإسلامي)، ماذا فعلنا كمثقفين - مؤرخين للتأثير على تلوين تلك الخريطة؟

إن لوئها القاتم السواد يجعلنا نخاف من الاقتراب منها رغم أن سوادها قد يشملنا ذات يوم"(سعد الله، 1990، ص13).

II - سعد الله والقضية الفلسطينية:

إذا كانت كل قضايا الأمة مغربا ومشرقا التي عاصرها سعد الله محل اهتمامه وكان لها حضورها اللافت في فكره، فإن القضية الفلسطينية كان لها وقعها الخاص لديه، ومن ثم نالت حيزا معتبرا من دائرة اهتماماته وكتابات ونشاطاته، لما تمثله من خصوصية دينية وقومية، ويمكن رصد اهتمام سعد الله بالقضية الفلسطينية من خلال ما يلي:

1 - القضية الفلسطينية في كتابات سعد الله:

وبالاطلاع على المنتج الفكري والعلمي لسعد الله نجد القضية الفلسطينية حاضرة فيه بشكل أو بآخر من خلال المواضيع والمقالات التالية:

- النشاط الصهيوني في الجزائر خلال تقديمه لكتاب يوسف مناصرة الذي يحمل هذا العنوان وهو في الأصل رسالته للدكتوراه كان سعد الله هو المشرف عليها(سعد الله، 2010، ص98).

- رسالة يهودي مهاجر من الجزائر إلى إسرائيل(سعد الله، 2015، ص321).

- قضايا القدس في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية (1924/1907)(سعد الله، 2011، ص419).

- الوعد الفرنسي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين 1917 - 1918(سعد الله، 2011، ص448).

- مع الرحالة العياشي في القدس وجوارها(سعد الله، 2011، ص463).

- أشباه الرجال حول الاجتياح الصهيوني للبنان سنة 1982(سعد الله، 2011، ص152).

- فلسطين في مصر حول الندوة التي شارك فيها والتي أقامتها منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة بعنوان ((حماية المقدسات والتراث الثقافي الفلسطيني)) سنة 1988 (سعد الله، 2015، ص249).
- صديق العدو يعلق فيه على الموقف الأمريكي المنحاز للصهاينة على حساب الفلسطينيين (سعد الله، 2015، ص259).
- علاقة الحركة الصهيونية بجماعة ((تركيا الفتاة)) أضواء جديدة حول دور الحركة الصهيونية في إسقاط الخلافة العثمانية وعلاقة ذلك بقضية فلسطين (سعد الله، 2015، ص269).
- غزة قمة الصمود حول العدوان الصهيوني على غزة وصمود أهلها ومقاومتها في وجهه (سعد الله، 2011، ص175).
- الرومان واليهود (سعد الله، 2011، ص63).
- إلى الفلسطينيين في مؤتمرهم الحاسم، وهو عبارة عن رسالة مفتوحة وجهها للفلسطينيين المجتمعين في مؤتمرهم الذي عقدوه في الجزائر (سعد الله، 2011، ص136).
- من غرناطة إلى القدس 1492 - 1992، وهو يعلق على ما عرف بمؤتمر السلام الذي عقد بمدريد بإسبانيا يربط فيه بين ضياع الأندلس وضياع القدس وفلسطين (سعد الله، 2011، ص136).
- اليهودية والصهيونية (سعد الله، 2009، ص391).
- هذا إضافة إلى إشارات المتعددة إلى قضية فلسطين التي وردت في حواراته الكثيرة التي أجراها مع عدد من الصحف والمجلات الوطنية والعربية والتي جمعها في كتابه ((حوارات))، وكذلك في الحوار الصريح المطول الذي أجراه معه مراد وزناجي والذي نشره في كتاب بعنوان ((حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ))، أو في كتابه ((مسارات قلم)) في أجزائه كلها تقريبا.
- 2 - موقف سعد الله من الصهيونية وداعميها:

إن موقف سعد الله الداعم والمساند للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية العرب والمسلمين الأولى والمركزية (سعد الله، 2015، ص267)، وكذلك لعمق نظراته الفكرية والتاريخية، وملكوته البحثية في أغوار الأحداث والوثائق والمصادر المختلفة والمتنوعة، ومعايشته الدقيقة والفاحصة لكل ذلك، جعله يتنبه مبكراً للخطر الصهيوني على المنطقة بل على العالم أجمع، وأكد مراراً أنه يأتي في مقدمة أعداء الأمة الذين ينبغي مواجهتهم (سعد الله، 2011، ص170)، وأن اليهود الصهاينة هم وراء أغلب الأحداث الكبرى في العالم في هذا العصر - وليس في المنطقة فحسب-، حيث إن الأحداث الأخيرة كان أغلبها من صنع وتحريك هؤلاء الذين تعاونوا مع الأقوى لتحقيق حلمهم وهو العودة إلى أرض الميعاد في زعمهم (وزناجي، 2008، ص145).

ويعتبر سعد الله الحركة الماسونية ووليدتها الحركة الصهيونية هما أخطر القوى الغامضة التي تمخض عنها القرن العشرون الميلادي، فقد نجحت الحركتان في تفتيت الإمبراطورية العثمانية، وإسقاط الإمبراطورية السوفياتية، وإقامة الدولة العبرية على أرض فلسطين، كما شاء حكماء صهيون وأساطين الماسون، بل إن الإمبراطورية الأمريكية نفسها إذا لم تسر مع الحركتين في وئام وانسجام (وهو الحاصل اليوم)، فإن مصيرها سيكون التفتيت والإسقاط أيضاً، لذلك فإن المسار الصهيوني - الماسوني والمسار الأمريكي متلازمان، ويتحركان جنباً إلى جنب على إيقاع واحد (سعد الله، 2009، ص94).

وهو عندما يتناول الحركة الصهيونية ويستعمل مصطلح وتسمية اليهود الصهاينة لأنه يفرق بين اليهودية والصهيونية، ولا يعتبر كل اليهود صهاينة - وإن كان أغلبهم كذلك -، ورغم وجود بعض القضايا الدينية الحساسة بين المسلمين واليهود فقد عاش هؤلاء حياة رضية تحت جناح الدول الإسلامية باعتبارهم أهل ذمة، ولم يجدوا الأمن والاطمئنان إلا في حماية الحضارة العربية - الإسلامية، بينما اضطهدتهم الحضارة الرومانية - المسيحية، ثم الحضارة الأوربية - العلمية المتأخرة (سعد الله، 2015، ص244).

ويذكر سعد الله كذلك في تفريقه بين اليهود والصهيانية أنه ليس كل اليهود كانوا يطمحون إلى تنفيذ المخطط العالمي السري للحركة الصهيونية، وليس كلهم على قلب واحد في تنفيذ المخططات الاستراتيجية الكبرى للحركة الصهيونية التي لا يدركها العالم عادة إلا بعد تنفيذها (سعد الله، 2010، ص 99).

وهو الموقف الذي نلمس فيه الكثير من روح الاعتدال، فرغم موقفه الصارم من الحركة الصهيونية ومشروعها، لكنه لا يحمل جريمتها لكل اليهود ولا اليهودية كدين، وهو الموقف الذي ينسجم مع مواقف أغلب علماء ومفكري الأمة الكبار ومنهم الإمام عبد الحميد بن باديس مثلاً الذي يقول عن الموضوع في كلمات شبيهة لكلمات سعد الله: "ليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها، ولا بين كل مسلم ويهودي على وجه الأرض، بل الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الإنجليزي من جهة، والإسلام والعرب من جهة" (ابن باديس، 1991، ص 401).

أما موقفه من داعمي الصهيونية فكثيراً ما أشار إلى الموقف الأمريكي والأوروبي المنحاز بشكل كامل للصهيانية وإسرائيل وداعم لها على حساب الحق الفلسطيني والعربي، فيقول عن الموقف الأمريكي على سبيل المثال: "نحن الذين درسنا في الجامعات الأمريكية نحس بالتناقض الصارخ بين ما تعلمناه عن المبادئ الأمريكية، وبين تطبيقات الإدارة الأمريكية نحو الأمة العربية وبالخصوص القضية الفلسطينية، إننا حقاً أمام تناقض صارخ بين المثالية والواقعية في سياسة الإدارة الأمريكية نحو القومية العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة: فهل نصدق ما تعلمناه في الجامعات الأمريكية من مثل عليا في الحرية والعدل وتقرير المصير، أو نصدق ما تعيشه قضيتنا الأولى (فلسطين) من ممارسات أمريكية قوامها التعسف والتجاهل ومصادقة العدو (الصهيوني) بلا حدود؟" (سعد الله، 2015، ص 267).

ويؤكد في موضع آخر أن الصهيانية يرتكبون جرائمهم في حق فلسطين والأمة وهم يحميمهم الفيتو الأمريكي ويباركهم تبلد الضمير العالمي ومؤامرة الصمت (سعد الله، 2011، ص 154).

وبسبب هذا الموقف المبدئي لسعد الله من الصهيونية وإسرائيل وداعميها، ووقوفه الواضح ضد الكيان الصهيوني وتنديده بجرائمه المتكررة ضد الفلسطينيين، ومساندته المطلقة للقضية الفلسطينية، وإيمانه الراسخ بأن مقاومة المحتل لن تكون إلا بالسلاح - كما سنعرف في تصوره لحل القضية الفلسطينية -، تم اتهامه بمعاداة السامية منذ ثمانينات القرن الماضي من طرف الصهاينة وحلفائهم (سعد الله، 2010، ص 02)، وكذلك ترجيحه أن تكون المخابرات الإسرائيلية أو الفرنسية هي من سرقت حقيقته التي تحتوي على وثائق ومخطوطات وأجزاء من كتبه والتي فقدتها في مطار لندن (سعد الله، 2010، ص 94)، والتي بقيت غصتها تلازمه إلى آخر حياته وقد سمّاها ((نكبة ثقافية)) توجب العزاء لصاحبها ضاعت فيها ثروة ثقافية جمعت بعرق الجبين وكتبت بعصارة العينين (سعد الله، 2015، ص 29).

3 - طبيعة الاحتلال الصهيوني لفلسطين من منظور سعد الله:

يحدد سعد الله طبيعة الاحتلال الصهيوني لفلسطين ويقارنه ببعض تجارب الاحتلال المعاصرة في ممارساته وجرائمه، والذي تفوق عليها في جزء كبير منها، واقتدى بها واستفاد من تجربتها في جزء آخر من هذه الجرائم والممارسات، فيؤكد وجود تشابه بين ما حدث في الجزائر أيام الجنرال بيجو وما يحدث في فلسطين اليوم على يد الزعماء الصهاينة، ويذكر أن بعض التقارير قد أكدت بأن الصهاينة كانوا يستفيدون فعلا في عمليات الاستيطان من تجربة الفرنسيين في الجزائر حين كانوا يجبرون الجزائريين بشتى أنواع الضغط والحيل ليستولوا على أراضيهم ثم يقيمون عليها المستوطنات للأوربيين، بل حتى العقاب الجماعي ونسف البيوت والطرده من الوطن (التهجير)، كل ذلك كان أسلوبا مارسته الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وما أشبه اليوم بالأمس، ومن جهة أخرى فإن مصطلح ((الإرهاب)) الذي يطلقه الصهاينة على المقاومين الفلسطينيين قد أطلقه الاستعمار الفرنسي في الجزائر على كل الثوار الوطنيين خلال فترة الاحتلال من عبارات الفلاقة والمفتنين والمتعصبين وغيرها (سعد الله، 2015، ص 251).

كما ربط سعد الله بين النظام الصهيوني المحتل لفلسطين وبين نظام الميز العنصري السابق في جنوب إفريقيا، وهو يفسر العلاقة الوثيقة التي كانت تربط النظامين والتحالف المتين بينهما، حيث أن الصهيونية تقوم تقريبا على نفس القاعدة التي قامت عليها جنوب إفريقيا العنصرية، أي الميز العنصري والإيمان بالتفوق على الآخرين، وإذا كان الضحايا في جنوب إفريقيا هم الأفارقة السود، فإن الضحايا في إسرائيل والأجزاء المحتلة من البلاد العربية هم الفلسطينيون، ولكن الفرق بين النظامين هو أن نظام جنوب إفريقيا يؤمن بالتفوق اللوني والعنصري، أما الإسرائيلي الصهيوني فيؤمن بالتفوق الديني والتاريخي، رغم أن أصحابه من الساميين. وإذا كان النظام في جنوب إفريقيا يكره أن يسوى بين الأبيض والأسود، فإن النظام الإسرائيلي الصهيوني يكره أن يسوى بين اليهودي والعربي، وما (الأبرتيد) إلا إفراز من النازية الآرية، وما الصهيونية إلا رد فعل عنصري متطرف عن معاداة السامية التي سادت أوروبا من العهد الروماني إلى دولة الرايخ الثالث (سعد الله، 2015، ص 247).

وإذا كان سعد الله يشبه الاحتلال الصهيوني لفلسطين في بعض مظاهره بالاحتلال الفرنسي للجزائر ونظام جنوب إفريقيا العنصري فإنه يحدد طبيعته باعتباره حوصلة لكل أنواع الاستعمار التي حدثت في الدنيا، وأن من سوء حظ الفلسطينيين أنهم ابتلوا باستعمار من نوع جديد لم يعرفه العالم من قبل في الكثير من أعماله وممارساته وجرائمه، فقد جرّب العالم كل أنواع الاستعمار: الاستيطاني، والاقتصادي، والانتدابي، والحماي، والعسكري، وحتى العنصري، ولكن الاستعمار الصهيوني أصبح نوعا فريدا، لعله يشكل خلاصة كل تلك الأنواع مضافا إليها الأساليب النازية والفاشستية مجتمعة، ومضافا إليها أيضا المخترعات العلمية التي تزيد من بشاعته وآثاره المدمرة على الإنسان والعمران (سعد الله، 2015، ص 266).

4 - أسباب ضياع فلسطين حسب سعد الله:

يلخص سعد الله أسباب ضياع فلسطين في أربعة أسباب كبرى رئيسية تتفرع عنها كل الأسباب الجزئية الأخرى وهي:

1.4 - عدم إدراك خطورة الحركة الصهيونية ومشروعها مبكرا:

حيث كان الاستخفاف بدور ونشاط الحركة الصهيونية وعدم إدراك خطورة مشروعها على المنطقة مبكراً هو الذي أضاع فلسطين وما يزال يضيعها إلى اليوم، وهو الذي حقق انتصارات الحركة الصهيونية على حساب العرب وقضيتهم المركزية، فقد كان لليهود خاصة المرتبطين بالحركة الصهيونية مخططات مبكرة لتهويد القدس ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت الجالية اليهودية في القدس نشطة ومنظمة وفعالة، فأنشأوا المطبعة والصحافة والمكتبات والمجلات المتخصصة والمدارس الدينية وغيرها، وأخذوا يحوّلون اللغة العبرية ويعممونها بشكل ملحوظ، ويشترون الأراضي في القدس وما حولها، ويشجعون الهجرة بالمال والدعم المادي والمعنوي (سعد الله، 2011، ص 420).

إضافة إلى دور الحركة الصهيونية الفاعل في تمزيق الدولة العثمانية وذلك باحتواء يهود الدوغة وتنفيذها في حركة تركيا الفتاة لتفتيت الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها تمهيداً لإقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، خاصة بعد رفض السلطان عبد الحميد الثاني بيع فلسطين وتسليمها لهم بعد مساومتهم له عليها، وقد استعملوا كافة أنواع النفوذ والابتزاز لذلك من مال وإعلام واختراق إيديولوجي وسياسي تحت شعارات ماسونية ونحوها (سعد الله، 2011، ص 270).

2.4 - الدعم الأمريكي والأوروبي للكيان الصهيوني:

لقد ارتبطت أمريكا بالحركة الصهيونية منذ الحرب العالمية الثانية، وأصبحت تنفذ سياسة إسرائيل في المنطقة العربية (وفي العالم أجمع)، فالنفوذ الصهيوني في أمريكا نفسها معترف به رسمياً وعلنياً، والتنسيق السياسي والعسكري والأمني والاستراتيجي بين أمريكا وإسرائيل معلن جهاراً ونهاراً وتبجحاً وتحدّياً أيضاً، وإذا بقيت أمريكا على تحالفها مع الكيان الصهيوني فإن خريطة الوطن العربي نفسه لن تبقى في العشرين سنة القادمة على ما هي عليه الآن (قال سعد الله هذا الكلام سنة 1988)، وإن الأخطبوط الصهيوني قد لا يحده إلا المحيط الأطلسي (سعد الله، 2015، ص 164).

كما إن كل من فرنسا وبريطانيا قد وعدتا مبكرا الحركة الصهيونية بوطن قومي لليهود في فلسطين، وقد سبق وعد جول كامبون (J.Cambon) الفرنسي الذي كان في 4 جوان 1917 وعد بلفور (A.J.Balfour) البريطاني الذي كان في 2 نوفمبر 1917، وقد كشف الوعدان تعاطف كل من فرنسا وبريطانيا مع إنشاء المستوطنات الصهيونية وبعث الدولة العبرية في فلسطين، وتنسيقهما وتآمرهما المباشر مبكرا منذ 1916 مع الحركة الصهيونية على مستقبل بلاد العرب والمسلمين وفي مقدمتها فلسطين (سعد الله، 2011، ص 448).

3.4 - التخاذل العربي الرسمي:

يؤكد سعد الله أن الصهاينة لم ينجحوا في ابتلاع فلسطين وما جاورها إلا لأن الطرف الآخر (العرب) كانوا ومازالوا في منتهى الضعف والانقسام والتخاذل والهوان، فقد دفنت الأنظمة العربية الرسمية رؤوسها في الرمال تاركة فلسطين والفلسطينيين بين أنياب التنين الصهيوني، وتخاذلت عن نصره القضية والمقاومة الفلسطينية، وتخلت عن إمدادها بالمال والسلاح في مواجهة السحق الجماعي بآخر أسلحة الفتك والدمار التي تعرض ويتعرض له الشعب الفلسطيني من طرف العدو الصهيوني مع الاكتفاء بالاستنكار اللفظي (إن وجد)، رغم أن بعض هذه الأنظمة اقتطع الصهاينة جزء من أراضي بلدانهم وليس فلسطين فقط ولكن لا حياة لمن تنادي (سعد الله، 2011، ص 153).

كما إن تدفق موارد العرب الطبيعية (النفط والغاز) على الدول المتحالفة صراحة مع العدو الصهيوني (أمريكا وأوروبا)، - بل قد تطور الأمر في الفترة الأخيرة إلى تدفقه على إسرائيل نفسها -، يجعله يعود على المنطقة وعلى الفلسطينيين على وجه الخصوص قذائف وحما محرقة ومدمرة تدك المنازل، حيث يقتل الصهاينة الشعب الفلسطيني ويفتكون به وبعمرائه وبمقداراته بأسلحة ممولة بطريقة مباشرة وغير مباشرة من نفط العرب وغازهم وأموالهم الموصدة في البنوك الأمريكية والأوروبية، وهي الأحداث التي عزّت الجميع، وكشفت وجه الحقيقة،

وسلّط الضوء على زيف الشعارات الإنسانية غير الصادقة عندما يتعلق الأمر بإسرائيل والصهاينة (سعد الله، 2011، ص 179).

4.4 - الانقسام العربي والفلسطيني:

فقد ساهم الانقسام العربي والفلسطيني في ضياع فلسطين، ومكّن الصهاينة من التمدد في المنطقة وبسط سيطرتهم ونفوذهم على فلسطين وما جاورها، وقد تنبّهت الحركة الصهيونية مبكراً لهذا العامل المهم في استقرار مولودها إسرائيل ونجاح مشروعها خاصة في فلسطين، فعملت على محاربة وإفشال كل مشاريع ومبادرات الوحدة عربياً وفلسطينياً، ولا زالت تعمل ليل نهار على تمزيق الوطن العربي والإسلامي بتمزيق الممزق وتجزئة الجزء، وذلك بتشجيع الخلافات المذهبية والفصائلية والإثنية والطائفية والزعامية والحدودية، وخلق مشاكل داخلية في كل قطر وتشجيع الأقليات إذا كانت موجودة وبعثها وصناعتها إذا كانت غير موجودة (سعد الله، 2011، ص 11).

ويذكر سعد الله أن الانقسام الفلسطيني كان له الأثر السيئ ولا زال على القضية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ومن أسوأ مظاهره الفصائلية المتضادة المتصارعة وتصرف كل فصيل بمعزل عن بقية الفصائل الفلسطينية الموجودة في ساحة العمل الوطني الفلسطيني، بل والمواجهة المباشرة بين بعضها بدل التوحد وجمع الكلمة وتنسيق الموقف والحركة لمواجهة عدوهم المشترك المتربص بهم جميعاً وبقضيتهم، حتى أن بعضهم ينسق مع عدوه ضد أخيه الفلسطيني، دون أن يعتبروا من الصهاينة الذين توحدوا بعد فرقة رغم تعدد طوائفهم من أجل محاربتهم بقبضة واحدة وصوت واحد (سعد الله، 2011، ص 205).

5 - علاقة سعد الله بالقضية الفلسطينية:

ولأن سعد الله يعتبر القضية الفلسطينية فوق كل الاعتبارات، وأن مصيرها خاصة القدس يهم كل العرب والمسلمين (سعد الله، 2015، ص 43)، فقد كانت حاضرة لديه ومحل اهتمامه ووقف معها بكل ما يملك منافحاً وداعماً ومسانداً، إضافة إلى كتاباته وبحوثه حولها، كان لسعد الله علاقة عملية بها من خلال جملة من النشاطات والتحركات والمشاركات والمبادرات نذكر منها:

1.5 - التطوع والمشاركة في رد العدوان الثلاثي على مصر:

حيث تطوع سعد الله وشارك في رد العدوان الثلاثي (الإسرائيلي الفرنسي البريطاني) على مصر سنة 1956 عندما كان طالبا في القاهرة عند حدوث العدوان المذكور، فشارك مع بعض رفاقه من الطلبة الجزائريين في المقاومة الشعبية لهذا العدوان، حيث يذكر أن الأوامر قد جاءتهم من جبهة التحرير الوطني عن طريق رابطة الطلبة الجزائريين في القاهرة بضرورة التطوع في المقاومة الشعبية، فاستجابوا لذلك ودخلوا ميدان التدريب العسكري في الساحة الملحقة بجمعية الشبان المسلمين، وعند العدوان وزعواهم على مؤسسات ومرافق عامة لحراستها ليلا ساعات محددة لكل واحد منهم (وزناجي، 2008، ص 126).

2.5 - لقاءاته المتكررة مع الحاج أمين الحسيني:

حيث التقى سعد الله عدة مرات بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس وفلسطين بالقاهرة لما كان طالبا بها، حيث كان الحسيني على علاقة وثيقة بالشيخ الإبراهيمي، وكان كثير الزيارة له في محل إقامته بمصر أين لازمه ورافقه سعد الله فيها مدة، وكانت زيارات الحسيني متعلقة أساسا بقضية فلسطين والواجب العربي الإسلامي نحوها، فقد كان للحاج أمين الحسيني دور مخضرم خلال مرحلة الصراع بين الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية والدعاية الألمانية النازية ثم حرب فلسطين سنة 1948، حيث ارتبطت قضية فلسطين والقدس مدة معتبرة به وبجهاده وبتحركاته في سبيلها (سعد الله، 2011، ص 168).

3.5 - التبرع بجوائزه لصالح قضية فلسطين والأنشطة المتعلقة بها:

فعند فوزه بجائزة الإمام عبد الحميد بن باديس المقدمة من طرف مركز دراسات المستقبل الإسلامي بلندن تبرع بقيمتها لصالح مكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة متمنيا أن يطلق اسم ((الانتفاضة الفلسطينية)) على جناح الكتب المشتراة من قيمة الجائزة، رابطا هذا التبرع الكريم بقضية فلسطين، ومبررا ذلك بأن الانتفاضة تمثل بارقة الأمل، وهي الصوت الراض للتردي، وهي رمز الإصرار على الوطن والحق الفلسطيني وعلى بقاء القدس عربية مسلمة (سعد الله، 2011، ص 140-141).

4.5 - مشاركته في الندوات والمؤتمرات المتعلقة بالقضية الفلسطينية:

حيث شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، وكمثال على ذلك مشاركته في ندوة ((حماية المقدسات والتراث الثقافي في فلسطين)) والتي تم تنظيمها من طرف منظمة التحرير الفلسطينية في مقر الجامعة العربية بالقاهرة في نوفمبر 1988 (سعد الله، 2015، ص 249).

6 - تصور سعد الله لحل القضية الفلسطينية:

المتتبع لكتابات سعد الله حول القضية الفلسطينية يجده يقدم تصوره لحل القضية وفق أربع خطوات كبرى يرى أنها ضرورية لذلك وهي:

1.6 - الرفض المطلق للتطبيع مع إسرائيل:

يشدد سعد الله على ضرورة رفض التطبيع مع الصهاينة وإسرائيل مهما كان شكله سياسي كان أو اقتصادي أو ثقافي أو غيره، حيث كان حساس جدا لموضوع التطبيع مع إسرائيل والصهاينة إلى الحد الذي جعله يرى أن محاولات تغيير العطلة الأسبوعية من الجمعة إلى السبت والأحد صورة من صور التطبيع المرفوضة مع إسرائيل، فيذكر أن هذا المقترح قد راعى قداسة السبت مع الأحد، لأن رضا اليهود أصبح هدف كل نظام في العالم، فهم اليوم أكثر تأثيرا حتى من النصارى، فهم من يدير سياسة العالم واقتصاده ومؤسساته المالية والبنكية، وقد أوعزوا لجميع الأنظمة أن يوم السبت يوم مقدس فلا يجوز لأي دولة أن تتجاوزه، وقداسته خط أحمر عند اليهود، وعلى الجميع أن ينسجم مع النظام الصهيوني اليهودي العالمي الموحد في عطلة نهاية الأسبوع (سعد الله، 2011، ص ص 26-28).

ولعل من المواقف العملية لسعد الله الراضية للتطبيع مع إسرائيل أن أحد طلبته في جامعة مينيسوتا الأمريكية عندما كان أستاذا بها طلب منه تركيته إلى جامعة القدس العبرية بإسرائيل وذلك في تقرير سري يكتبه عنه إليها بواسطة مكتبها في نيويورك وهو تقليد معمول به عندهم، فرفض أن يكتب للجامعة المذكورة أو أن يتواصل معها ولو بتزكية طالب إليها، وأن أقصى ما يستطيع أن يفعله له بعد إلحاحه ورفعاً للحرص مع إدارة الجامعة التي يدرس بها أن يكتب له تركية عامة غير موجهة إلى أي جهة ليضعها في ملفه (سعد الله، 2011، ص 158).

2.6 - معارضة السلام القائم على التفريط في الحقوق:

يرفض سعد الله السلام مع إسرائيل الهاضم للحقوق والمفطر في المقدسات، ويرى أن القبول به ما هو إلا تفريط في القضية برمتها وتضييع للقدس، حيث يذكر موقفه من مؤتمر السلام الذي انعقد بمديرد بإسبانيا ويخاطب الفلسطينيين: "قولكم اليوم نعم للسلام المعروض عليكم فيه مزلق يؤدي إلى المزيد من ضياع قضيتكم، ورفضكم له يؤدي إلى كشف الأطراف المتآمرة على القضية كلها، فانزعوا الأقنعة عن الوجوه التي ستجلس حول المائدة مع إسرائيل لتأكل لحم الفلسطينيين بشوكات صهيونية وسكاكين أمريكية.

إن فلسطين دين في أعناقكم، والقدس مرسوم في القلوب وعلى الجباه، ويكفي العرب أنهم أضاعوا الأندلس فهل يرضيكم أن تكونوا أنتم اليوم شهود ضياع القدس عاصمة فلسطين؟" (سعد الله، 2011، ص 140).

3.6 - ضرورة وحدة الفلسطينيين:

يعتقد سعد الله أن من أهم ما يجب أن يتسلح به الفلسطينيون ضد المحتل الغاصب ومناصريه هو خيار الوحدة الوطنية الفلسطينية والابتعاد عن التفرقات، ونبذ الخلافات السياسية والفكرية والأيدولوجية والفصائلية، والتخلي عن أهواء النفس وحب الزعامة وكثرة الرؤوس، وأن يتعلموا من الثورة الجزائرية درساً خالداً، وهو أن لا بطل إلا الشعب، ولا زعيم إلا السلاح، ولا وسيلة إلا القوة والوحدة (سعد الله، 2015، ص 265).

ولما سئل عن أحلامه التي لم تتحقق ويتمنى تحقيقها وقد بلغ السبعين كان ذلك سنة 2000 ذكر منها: سكوت الفلسطينيين عن التباهي بأسماء فصائلهم وشهادتهم، وتعلمهم من عدوهم العمل الصامت الذي تظهر آثاره دون معرفة فاعليه، وإدراكهم أن الأسماء لا تضيع، وأن ذكر الفصائل في وقت الشدة علامة ضعف وليس علامة قوة، وليعتبروا بجيرانهم (الصهاينة) الذين توحدوا بعد فرقة من أجل محاربتهم بقبضة واحدة وصوت واحد (سعد الله، 2011، ص 205).

4.6 - المقاومة هي الحل:

يعتبر سعد الله القضية الفلسطينية هي أم القضايا العربية والإسلامية الراهنة، وأن لا حل لها إلا بالمقاومة الشاملة وعلى رأسها المقاومة المسلحة، كأى قضية تحرر وطني في الدنيا، حيث يؤمن إيماناً راسخاً بأن المقاومة والقوة والسلاح هو الذي يحرر فلسطين وليس الاستجداء السياسي والسلام المزعوم والتنازلات المفرطة في الحق والأرض، ويؤكد أن الفلسطينيين هم أولى الناس بأن يعرفوا أن المطالبة بالحق عن طريق الاستجداء في الأمم المتحدة وغيرها لن يجعل عدوهم ينحني ويرضخ، ولن يجعل صديق العدو (أمريكا على وجه الخصوص) يراجع حساباته وأوراقه، فقد جرب الفلسطينيون ذلك ربع قرن أو يزيد دون جدوى، جربوه في الملاجئ ومنظمات الغوث ومحافل العالم، فلم يجدوا منه إلا الشفقة من البعض والاحتقار من الآخرين، أما المقاومة والانتفاضة والثورة فهي التي ستجلب إليهم احترام العالم، وتعيد إليهم حقهم المعتصب (سعد الله، 2015، ص265).

لذلك لا يسع مثقف ومفكر حر كسعد الله إلا أن يبارك نضال المقاومة الفلسطينية التي بعثت الأمل في النفوس بالنصر مهما طال الزمن، كما برهنت أنها تمثل إرادة شعب مؤمن بحقه في الحياة، ومصمم على اقتكاك هذا الحق مهما كان الثمن، وجعلت هذه المقاومة العالم أجمع يعرف أن جهادها ضد المحتل ومقاومتها له وثورتها عليه هي قبل كل شيء ثورة ومقاومة شعب لا ثورة زعماء، وثورة أرض وعرض لا ثورة صالونات، وأن الذي يقف على أرضه وييده سلاح من حجارة أفضل ألف مرة ممن بيده منشور سياسي يتجول ويتسول به في المحافل الدولية (سعد الله، 2015، ص256).

76 - الخلاصة والنتائج

ويمكن تلخيص موقف سعد الله من قضايا أمته وفي القلب منها القضية الفلسطينية في النقاط التالية:

- 1 - غلبت هموم الأمة على سعد الله فطبعت أغلب كتاباته واهتماماته التاريخية منها والفكرية، حيث جعل قضاياها المختلفة حاضرة بقوة لديه كلما كتب أو حاضر أو تحرك أو شارك في أي تظاهرة داخل الجزائر وخارجها، كما كان وحدوي الروح والفكر والتوجه، ولا

يرى نجاة للأمة وتجاوزا لأزماتها المختلفة وحلا لقضاياها ودحرا لأعدائها، إلا بوحدتها وطنيا وعربيا وإسلاميا، والعكس حيث تسببت فرقتها وانقساماتها وتمزقها في معظم مآزقها وكوارثها والتمكين لأعدائها.

2 - رغم اهتمام سعد الله بكل قضايا الأمة إلا أن القضية الفلسطينية كانت لها عناية خاصة لديه، لما تحمله من خصوصية قومية ودينية ووجود أوقاف المغاربة وفي مقدمتهم الجزائريين في القدس وفلسطين، فكان لها نصيب معتبر مما كتب من بحوث ومقالات، ومن مساهماته ونشاطاته المتنوعة.

3 - كان سعد الله ضد الصهيونية ومشروعها وداعميها في كل ما كتب، ويرى أنها من أشد وأكثر أعداء الأمة خطورة، وأن لا نجاة من شرها إلا بالإدراك الواعي لهذا الخطر ومواجهة هذا المشروع بقوة وحزم ووحدة، كما أنه يفرق بين اليهودية والصهيونية ويرى أنه ليس بالضرورة كل يهودي صهيوني وليس كل اليهود يحملون مشروع الحركة الصهيونية ويوالون إسرائيل وإن قلت نسبتهم اليوم.

4 - يعتقد سعد الله أن الاحتلال الصهيوني لفلسطين ورغم بعض أوجه الشبه بينه وبين الاحتلالات الأخرى كالاحتلال الفرنسي للجزائر مثلا، إلا أنه يحمل طبيعة خاصة تجعله يشكل خلاصة لكل أنواع الاحتلال التي حدثت في الدنيا ويزيد عليها.

5 - يحدد سعد الله أسباب ضياع فلسطين في أربعة عوامل كبرى ساهمت مجتمعة في ذلك، تمثلت في عدم إدراك خطورة الحركة الصهيونية ومشروعها مبكرا، والدعم الأمريكي والأوروبي المطلق لإسرائيل، والتخاذل العربي والإسلامي خاصة الرسمي منه في دعم القضية ونصرتها ومواجهة عدوها، والانقسام العربي والفلسطيني، وما عداها من الأسباب الأخرى فتعتبر متفرعة عنها.

6 - إضافة إلى كتاباته وبحوثه ومقالاته حول قضية فلسطين، كان لسعد الله بعض التحرك العملي في علاقته المباشرة بها من خلال مشاركته في ندوات ومؤتمرات متعلقة بفلسطين، ولقاءاته ببعض

زعماء النضال الفلسطيني، وتطوعه في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر، وتبرعه ببعض جوائزه العلمية لصالح أنشطة لها علاقة بفلسطين.

7 - يقوم تصور سعد الله لحل قضية فلسطين على رفضه القاطع لكل أشكال التطبيع مع الصهاينة وإسرائيل، ورفض مبادرات السلام الهاضم للحق الفلسطيني والعربي والإسلامي والمفطر فيه والمتنازل عنه، وضرورة تبني المقاومة بكل أشكالها وفي مقدمتها المقاومة المسلحة التي لا يفهم العدو لغة غيرها ككل قضايا التحرر الوطني في العالم، على أن تكون مقاومة المحتل في ظل وحدة الصف الوطني الفلسطيني والتحامه تحت راية واحدة ينضوي تحتها الجميع بعيدا عن الفصائلية المشتتة، تماما كما فعلت الثورة الجزائرية وكان سبب نجاحها وتحقيقها لأهدافها.

- المراجع:

- 1 - ابن باديس، عبد الحميد. (1991). آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، قسنطينة، دار البعث.
- 2 - بلغيث، محمد الأمين. (2014). رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، الجزائر، البصائر الجديدة،
- 3 - سعد الله، أبو القاسم. (1990). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 4 - سعد الله، أبو القاسم. (2006). مجادلة الآخر، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 5 - سعد الله، أبو القاسم. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي، ط6، ج6، الجزائر، دار البصائر.
- 6 - سعد الله، أبو القاسم. (2009). خارج السرب مقالات وتأملات، ط2، الجزائر، دار البصائر.
- 7 - سعد الله، أبو القاسم. (2010). مسار قلم، ج5، الجزائر، عالم المعرفة.
- 8 - سعد الله، أبو القاسم. (2010). حاطب أوراق، الجزائر، عالم المعرفة.
- 9 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). أفكار جامحة، الجزائر، عالم المعرفة.
- 10 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). حصاد الخريف، الجزائر، عالم المعرفة.
- 11 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). حوارات، الجزائر، عالم المعرفة.
- 12 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). مسار قلم، ج6، الجزائر، علم المعرفة.
- 13 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). هموم حضارية، الجزائر، عالم المعرفة.
- 14 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، الجزائر، عالم المعرفة.
- 15 - سعد الله، أبو القاسم. (2011). حبر على ورق، الجزائر، عالم المعرفة.
- 16 - سعد الله، أبو القاسم. (2015). في الجدل الثقافي، الجزائر، عالم المعرفة.
- 17 - سعد الله، أبو القاسم. (2015). مسار قلم، ج7، الجزائر، عالم المعرفة.
- 18 - وزناجي، مراد. (2008). حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، الجزائر، منشورات الحبر.